في وجهي ، ويوما قبله طردتني ضربا برجليك ، ويوما قبله دعوتني بكلب ، فقياما مني بحق تلك المكارم كلها سأقرضك نقودا » ؟!.

وقد أشار ماركس بدقة الى هذا الصراع الشرس بين الرأسمالية الناهضة والرأسمال الربوي الموروث من العصور السابقة في المجلد الثالث من « رأس المال » بقوله : « ان هذه المعركة العنيفة ضد الربا ، وهذا الاصرار على اخضاع الرأسمال الربوي للرأسمال الصناعي، هو النذير بالمؤسسات العضوية التي تضع شروط الانتاج الرأسمالي في النظام المصرفي الحديث . ان هذا النظام ينزع من الرأسمال الربوي احتكاره عن طريق تركيز كل الإحتياط المالي العاطل وقذفه في السوق المالية من جهة ، وتحديد احتكار المعدن الثمين نفسه بواسطة خلق التسليفات المصرفية من جهة اخرى »(٣).

ان نتيجة المعركة العنيفة التي أشار اليها ماركس معروفة جيدا ورمزت لها مسرحية شكسبير بالدمار التام تقريبا الذي لحق بشايلوك ليس بخسارته ثروته ووظيفته الاجتماعية كمراب فقط بل ايضا بفقدانه ابنته التي فرت مع حبيبها المسيحي لورنزو .

بديهي أن مسرحية شكسبير لا يمكن ان تكون مصدرا للتأريخ لبروز المسألة اليهودية في العصور الحديثة وفي حقبة صعود الرأسمالية ، الا ان التجاهل السائد للوقائع التاريخية والصراعات الاجتماعية التي صورها شكسبير في « تاجر البندقية » على طريقته يعني أن فهمنا للمسألة اليهودية سيبقى **مثاليا طوباويا ومشوها** ، مما يعني بالتالي انه سيتعذر علينا ايضا فهم بعض النواحي الهامة ، على أقل تعديل ، من الحركة الصهيونية فهما علميا دقيقا يمكن أن يرتكز عليه النضال الثوري ضدها .

فايز صايغ : سوف أبحث في كلمتي ، بصورة عامة وقد تكون مبسطة ، في اوجه الصلة ومواطن الشبه والاختلاف بين الحركة الصهيونية من جهة وبين بعض المفاهيم والمبادىء التي كانت تعصف في مكان قيام الصهيونية وزمانه (اي في اوروبا في اواخر القرن التاسع عشر) من جهة اخرى . اي اوجه الصلة — شبها واختلافا — بين الحركة الصهيونية، كحل قيل أنه الحل الوحيد « للمسألة اليهودية »، وبين حركات اوروبية عاصرت قيامها ، واهمها الحركة القومية وحركة الاستعمار الاستيطاني والحركة الامبريالية .

وعلينا ، بادىء ذي بدء ، ان نشير الى الصلة القائمة بين الحركة الصهيونية والمسألة اليهودية، كقاعدة لفهم الصلة القائمة بين الصهيونية والمفاهيم والحركات الاوروبية التي قامت الصهيونية ضمن اطارها والتي اقتربت منها واختلفت عنها في الوقت عينه . تميزت المسألة اليهودية اواخر القرن ١٩ بعودتها الى الظهور من جديد بعد أن كانت قد غابت عن الساحة بشكل عام منذ مطلع ذلك القرن ، اذ بعد قيام حركات التحرر والعلمنة كان هناك اتجاه نحو تغطية المسألة اليهودية وعدم ظهورها الى ان جاء الربع الاخير من القرن فبرزت هذه المسألة من جديد وبحلة جديدة . ووجد بعض اليهود أجوبة مختلفة لها لانها طرحت نفسها عليهم من جديد وبعنف جديد . فوجد بعضهم حلا لها في **الاندماج والذوبان** ، أي في المزيد من القضاء على ما يميز اليهودي عن غيره في المجتمع الذي يعيش فيه . وقال هذا النفر انه فقط بالاندماج والذوبان يمكن للمسألة اليهودية ان تزول نهائيا . وذهب اخرون الى حل سموه حل **النزوح** . أي : عندما تنتفض الاوساط التي يقيم اليهود بينها ضدهم ، وتنشأ لاسامية جديدة في مجتمع ما ، فما على يهود ذلك المجتمع الا ان ينزحوا الى مجتمع اخر لا يكون فيه للاسامية مكان . وذهب نفر آخر الى **التمرد** ، فكانوا يعتقدون أنه بمجاراة الحركات الثورية بل والفوضوية القائمة في ذلك الوقت في اوروبا ومساندتها يمكن لليهود ان يضعوا ثقلهم مع تلك الحركات الرامية الى تحطيم المجتمع وكافة تركيباته ، حتى يقضوا على ذلك المجتمع الذي تقوم ضمن اطاره اللاسامية . جاءت الصهيونية رفضا لهذه الحلول الثلاثة كلها . وكانت رفضا يقوم على الاعتقاد بأن اللاسامية ليست امرا عارضا وليست امرا زائلا يمكن ان يتصور الانسان زواله بشكل نهائي ، بل على أنها عنصر ثابت لا يمكن أن يختفي الا باختفاء أسبابه . وأسبابه ، في تقييم الصهيونية للمسألة اليهودية ، هي كون اليهودي وحده يحيا حياة غير طبيعية في حمى مجتمعات لها حياة طبيعية . واذن فلا حل نهائي للمسألة اليهودية الا قيام دولة خاصة باليهود .

---

٣ — المرجع السابق ، ص. ٥٩٠ .